فقد ذكر مار ميخائيل الكبير أن الروم البيزنطيين قد مارسوا شتى صور التعذيب والتنكيل ضد من يختلف معهم في المذهب من أبناء الطوائف المسيحية. فقد أصدر هرقل منشورًا للعمل بموجبه في كافة أنحاء مملكته، جاء فيه: "كل من لا يقبل مجمع خلقدونية، يقطع أنفه، وآذانه، وينهب بيته. واستمر هذا الاضطهاد مدة غير يسيرة، فقبل العديد من الرهبان المجمع، وظهر غش رهبان جماعة مارون والمنبجيين والحمصيين والمناطق الجنوبية، وهكذا قبل معظمهم المجمع، واغتصبوا الكنائس والأديرة، ولم يسمح هرقل لأحد من الارثوذكس بزيارته، ولم يقبل شكواهم بصدد اغتصاب كنائسهم"[1].

إن ما تقدم يوضح الابعاد الدينية والإنسانية فضلا عن البعد القومي الذي حمل العرب المسيحيين في العراق والشام وغيرها على التعاون مع العرب المسلمين والترحيب بهم بصفتهم محررين ومنقذين لهم من الظلم والاضطهاد الذي عانوا منه طويلاً على أيدي الروم البيزنطيين.

2- حروب التحرير على جبهة الشام:

حين تولى عمر بن الخطاب ﷺ الخلافة كانت الجيوش الإسلامية في الشام قد سجلت أحد أبرز انتصاراتها على الروم في معركة أجنادين، وراحت تستثمر آثار هذا الانتصار في محاولة القضاء على القوة البيزنطية في مختلف أنحاء بلاد الشام. فذكر البلاذري أن قوات المسلمين استطاعت أن تهزم الروم في معركتين كبيرتين في "وقعة فحل من الأردن"[2]، "ومرج الصفر وهم متوجهون إلى دمشق"[3].

وبينما كانت قوات المسلمين تحاصر مدينة دمشق، وقد أوشكت أن تدخلها صلحًا بعد أن أبدى سكانها رغبتهم في المصالحة، وكانت القيادة بيد خالد بن الوليد وصلت رسالة من الخليفة عمر بن الخطاب إلى أبي عبيدة بن الجراح الذي كان أحد قادة الجيوش التي تعمل تحت إمرة خالد بن الوليد، وهو أحد كبار صحابة رسول الله ﷺ، يعلمه فيها أنه قد عينه قائدًا عامًا على القوات المكلفة بتحرير بلاد الشام بدلا عن خالد بن الوليد[4].

وقد ذكر البلاذري أن أبا عبيدة بن الجراح حين تسلم رسالة عزل خالد بن الوليد

(1) المصدر نفسه: ج 2، ص 146.

(2) البلاذري: فتوح البلدان، ص 122.

(3) المصدر نفسه، ص 125.

(4) ابن خياط: تاريخ، ج 1، ص 94.

عن إمارة الجيش كتمها واستمر يعمل تحت إمرة خالد حتى انتهى من تحرير دمشق وعقد الصلح مع أهلها. فلما سأله خالد عن سبب ذلك بقوله، "ما دعاك – رحمك الله – إلى ما فعلت؟ قال: كرهت أن أكسرك وأوهن أمرك وأنت بإزاء عدو"[1].

إن انتصارات المسلمين المتتالية في بلاد الشام قد فتحت الطريق أمامها نحو الشمال، حيث تقع حدود الإمبراطورية البيزنطية ومركز حكمها، مما أدخل الخوف إلى قلب الإمبراطور البيزنطي وجعله يبادر إلى حشد جموع كثيرة "من الروم وأهل الشام وأهل الجزيرة وأرمينية"[2] لمقاتلة جيوش المسلمين حتى قدرت بعض الروايات عددهم بمائتي ألف[3] أو ثلاثمائة ألف في حين مالت روايات أخرى إلى تقدير عددهم بمائة ألف[4].

لقد حملت هذه الاستعدادات الكبيرة للروم المسلمين على تجميع قواتهم من مختلف المناطق وحشدها في موضع يسهل الدفاع عنه في مواجهة قوات الروم. وكان ذلك الموضع هو وادي اليرموك في الأردن على حافة الصحراء، حيث يسهل على العرب تلقي الإمدادات والإنسحاب عند الضرورة.

وقد بلغت قوات المسلمين التي حشدت لهذه المعركة كما يذكر البلاذري أربعة وعشرين ألف مقاتل[5]. غير أن الطبري يذكر أن عددها قد بلغ ستة وأربعين ألف مقاتل[6].

وقد أشير إلى أن المسلمين أفلحوا في اجتذاب العرب المتحالفين مع الروم للقتال إلى جانبهم في هذه المعركة. فقد ذكر البلاذري أن جبلة بن الأيهم الغساني الذي كان على مقدمة جيش الروم في مستعربة الشام من لخم وجذام وغيرهم قد انحاز إلى الأنصار فقال "أنتم إخوتنا وبنو أبينا، وأظهر الإسلام"[7].

وهكذا فقد استطاع المسلمون أن يتغلبوا على مشكلة الفارق العددي بينهم وبين قوات الروم بسبب ارتفاع معنوياتهم، وحسن استعدادهم للقتال واجتذابهم للعرب المتحالفين مع الروم للقتال إلى جانبهم. وبذلك تمكنوا من إلحاق هزيمة فادحة في

(1) البلاذري: فتوح البلدان، ص 122.
(2) المصدر نفسه، ص 140.
(3) المصدر نفسه، ص 140.
(4) ابن خياط: تاريخ، ج 1، ص 100.
(5) البلاذري: فتوح البلدان، ص 141.
(6) الطبري: تاريخ، ج 3، ص 395.
(7) البلاذري: فتوح، ص 140 – 142.

قوات الروم البيزنطيين.

لقد حملت هزيمة الروم في معركة اليرموك التي وقعت في رجب من سنة 15هـ/ 636م[1] إمبراطور الروم على اليأس من استرجاع بلاد الشام مرة أخرى من أيدي المسلمين. فقد ذكر البلاذري أنه "لما بلغ هرقل خبر أهل اليرموك وإيقاع المسلمين بجنده هرب من أنطاكية إلى قسطنطينية، فلما جاوز الدرب قال: عليك يا سورية السلام، ونعم البلد هذا للعدو"[2].

إن انتصار المسلمين الحاسم على الروم البيزنطيين في معركة اليرموك، قد أفسح المجال أمام المسلمين للعودة إلى جميع المدن التي انسحبوا منها بعد تحريرها، واستكمال تحرير المدن الأخرى. وإن مما له دلالة عميقة حول معاملة المسلمين لسكان البلاد المحررة وموقف هؤلاء السكان منهم، ما أورده البلاذري من أنه "لما جمع هرقل للمسلمين الجموع، وبلغ المسلمين إقبالهم إليهم لوقعة اليرموك، ردوا على أهل حمص، ما كانوا أخذوا منهم من الخراج، وقالوا: قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم، فأنتم على أمركم، فقال أهل حمص: لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم، ولندفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم. ونهض اليهود فقالوا: والتوراة لا يدخل عامل هرقل مدينة حمص إلاّ أن نغلب ونجهد، فأغلقوا الأبواب وحرسوها، وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود"[3]. وهكذا فقد عاد المسلمون إلى حمص وغيرها من مدن الشام بعد انتصارهم في اليرموك وسط حفاوة وترحيب الناس بهم لأنهم نظروا إليهم بصفتهم محررين لا فاتحين.

وقد كان قادة جيوش التحرير الإسلامية حريصون على تألف قلوب الناس وتحقيق أهدافهم بأيسر السبل وأقلها تضحيات في الأرواح، لذا فإنهم حينما حاصروا مدينة القدس التي كانت تدعى "إيلياء" وطلب أهلها الصلح مع المسلمين على أن يكون من يتولى عقده معهم الخليفة نفسه، وافق أبو عبيدة بن الجراح أمير المسلمين في الشام على ذلك، وكتب إلى الخليفة عمر بن الخطاب بذلك، فقدم عمر إلى القدس فصالحوه على الجزية وفتحوها للمسلمين[4].

وقد أشارت بعض المصادر إلى أن قدوم عمر إلى بلاد الشام كان في سنة 17هـ/

(1) المصدر نفسه، ص 142: ابن خياط: تاريخ، ج 1، ص 100.

(2) البلاذري: فتوح، ص 142.

(3) المصدر نفسه، ص 143.

(4) ابن خياط: تاريخ، ج 1، ص 105.

638م، وإنه قد نزل في الجابية إحدى عمال دمشق حيث اجتمع بقادة المسلمين فيها، وتدارس معهم أوضاع بلاد الشام ومشكلاتها ووضع المعالجات اللازمة لها، وربما تم الاتفاق في هذا الاجتماع على بعض الخطط المستقبلية وبخاصة ما يتصل بحروب التحرير والفتوحات[1].

وبعد أن استقرت الأوضاع في بلاد الشام والجزيرة بصورة تامة توجه عمرو بن العاص في حدود سنة 20هـ/ 641م إلى مصر لتحريرها من التسلط البيزنطي على رأس جيش مؤلف من ثلاثة آلاف وخمسمائة مقاتل[2]. ويبدو أن هذا الجيش كان بمثابة قوة استطلاع هدفها التعرف على مدى استعداد الروم لمقاومة المسلمين، على أن تعقبها بعد ذلك الإمدادات الضرورية لمساعدتها على تحقيق هدفها.

وقد ذكر البلاذري أن عمرو بن العاص قد توجه بجيشه إلى مصر بناءًا على اجتهاده الخاص وقبل أن يأخذ الموافقة على ذلك من الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، وإن الخليفة حين بلغته أخبار ذلك غضب وكتب إلى عمرو بن العاص يأمره بالتوقف عن ذلك إذا لم تصل قواته أرض مصر بعد. غير أن عمرو بن العاص وضع الخليفة أمام الأمر الواقع وأخبره أنه قد دخل مصر، مما حمل الخليفة على تقديم النجدة له، فأرسل الزبير بن العوام على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف أو اثني عشر ألف مقاتل لمساعدته في استكمال تحرير مصر[3].

والحقيقة أن ما ذكره البلاذري لا يتفق مع أسلوب الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ في سياسة الدولة وتوجيه عماله وقادة جيوشه، ولو صح ما أورده البلاذري آنفًا لكان اقل ما يفعله عمر بن الخطاب هو عزل عمرو بن العاص عن قيادة الجيش في مصر.

وقد أشارت مصادر أخرى إلى أن عمرو بن العاص لم يدخل مصر إلا بناءًا على قرار وتوجيه من الخليفة عمر بن الخطاب نفسه، وربما جاء هذا القرار بعد المداولات التي تمت بين الخليفة وعمرو بن العاص في الشام حينما اجتمع به الخليفة في الجابية[4]. فقد ذكر الطبري أن ابن إسحاق قال: "أن عمر رضي الله عنه حين فرغ من الشام كلها كتب إلى عمرو بن العاص أن يسير إلى مصر في جنده، فخرج حتى فتح

---

(1) البلاذري: فتوح، ص 144 – 145 ابن عبد الحكم، عبد الرحمن بن عبد الله: فتوح مصر وأخبارها، ليدن 1920، ص 53 – 56.

(2) ابن خياط: تاريخ، ج 1، ص 104: البلاذري: فتوح، ص 214.

(3) البلاذري: فتوح، ص 214 – 215.

(4) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص 56.

باب اليون في سنة عشرين"[1]. وقد أكد ابن خياط نفس الرواية عن طريق غير طريق ابن إسحاق، فذكر أن عمر كتب إلى عمرو بن العاص أن سر إلى مصر فسار، وبعث عمر الزبير بن العوام مددًا..." [2].

وتتفاوت المصادر التاريخية في التفصيلات التي تقدمها عن الكيفية التي تم فيها تحرير مصر[3]. فقد ذكر البلاذري أن عمرو بن العاص سار من فلسطين إلى مصر عن طريق الساحل البحري باتجاه العريش، حيث توجه منها إلى "الفرما"[4]، وهي مدينة في موقع مشرف حصين على مرتفع يبعد ميلاً ونصف الميل عن البحر المتوسط. وكان اسمها القديم بلور (بيلوسيوم) [5]. وكان في مدينة الفرما قوم مستعدون للقتال، فحاربهم عمرو بن العاص وهزمهم وسيطر على معسكرهم [6]. ثم واصل منها تقدمه إلى منطقة القاهرة القديمة " الفسطاط " وكان فيها حصن منيع اسمه بابليون، أطلق عليه بعض المؤرخين العرب اسم " اليونة " [7]. يقول البلاذري أن عمرو بن العاص " مضى قدما إلى الفسطاط فنزل جنان الريحان وقد خندق أهل الفسطاط، وكان إسم المدينة إليونة فسماها المسلمون فسطاطًا لأنهم قالوا: هذا فسطاط القوم ومجمعهم " [8].

لقد حاصرت قوات عمرو بن العاص حصن بابليون، وفي أثناء الحصار وصلتها النجدة بقيادة الزبير بن العوام ومعه جيش مؤلف من حوالي عشرة آلاف إلى اثني عشر ألف مقاتل مما ساعد عمرو بن العاص على إرغام أهل الحصن على طلب الصلح والموافقة على أداء الجزية للمسلمين [9].

بعد هذا النجاح الذي حققته قوات المسلمين في بابليون، قام عمرو بن العاص بإرسال حملات متفرقة إلى مختلف المدن والقرى المصرية لإخضاعها للسلطة الإسلامية، فوجه "عبد الله بن حذافة السهمي إلى عين شمس فغلب على أرضها وصالح أهل قراها على مثل حكم الفسطاط، ووجه خارجه بن حذافة العدوي إلى

(1) المصدر نفسه، ج 4، ص 104.
(2) ابن خياط: تاريخ، ج 1، ص 114.
(3) ان أوسع مصدر في هذا المجال هو كتاب ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، ص 53 – 60.
(4) البلاذري: فتوح، ص 214: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص 58.
(5) صالح مهدي عماش: القيادة الناجحة، بغداد 1970، ص 66.
(6) البلاذري: فتوح، ص 214: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص 58.
(7) عماش: القيادة الناجحة، ص 72.
(8) البلاذري: فتوح، ص 214.
(9) المصدر نفسه، ص 216، ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص 61 – 62.

الفيوم والأشمونين وأخميم والبشر ودات وقرى الصعيد ففعل مثل ذلك.." [1]، وهكذا توالت الحملات حتى " استجمع عمرو بن العاص فتح مصر فصارت أرضها أرض خراج " [2].

وأخيرًا جمع عمرو بن العاص قواته وتوجه لتحرير الاسكندرية آخر معاقل الروم في مصر. وفي الطريق قابلته قوات الروم وحلفاؤهم من القبط عند منطقة تدعى الكربون، فاشتبك معهم في معركة عنيفة تمكن فيها من الحاق الهزيمة بهم " وقتل منهم مقتلة عظيمة " [3]. وقد أدت هذه الهزيمة إلى تحطيم معنويات الروم وانسحابهم إلى الاسكندرية للتحصن بها. غير أن جيش المسلمين واصل تقدمه نحو الاسكندرية وفرض حصارًا شديدًا عليها استمر ثلاثة أشهر حتى أرغم القوات المدافعة عن المدينة على الاستسلام وقبول شروط الصلح التي عرضها عليهم عمرو بن العاص[4]. وبذلك أصبحت جميع مصر ضمن أقاليم الدولة العربية الإسلامية، وكان ذلك في حدود سنة 21هـ / 642 م[5].

بعد أن حققت قوات المسلمين أهدافها في مصر واستقرت الأوضاع لها فيها توجهت غربا باتجاه برقة وطرابلس، فتم لها تحريرها من الروم البيزنطيين وعقد الصلح مع أهلها وذلك في حدود سنة 22 هـ / 643 م، وبذلك تم ترسيخ الوجود العربي الإسلامي في إفريقيا حيث ستتواصل بعد ذلك حملات الفتح والتحرير[6].

وهكذا نلاحظ أن سياسة التحرير والفتح التي انطلقت قبل عشر سنوات أثر حروب الردة التي كانت تهدد وحدة الدولة العربية الإسلامية الناشئة ووجودها بالخطر، قد حققت نجاحًا باهرًا، ربما تجاوز كثيرًا ما كان يحلم أبو بكر الصديق ﷺ في تحقيقه حينما أذن ببدء هذه السياسة، إذ استطاعت الجيوش الإسلامية أن تهزم أكبر امبراطوريتين في العالم، وتمد سلطانها إلى العراق والشام ومصر وليبيا، حيث تمكنت من خلال ذلك من توحيد أبناء القبائل العربية ضمن إطار الأمة الواحدة، وتأمين المجال الحيوي للدولة العربية الإسلامية الناشئة أن تنمو وتتطور على أرضية ملائمة اقتصاديا واجتماعيا وحضاريا.

---

(1) البلاذري: فتوح، ص 218.

(2) المصدر نفسه، ص 218.

(3) المصدر نفسه، ص 222.

(4) المصدر نفسه، ص 222: ابن عبد الحكم: فتوح مصر، ص 72.

(5) المصدر نفسه، ص 221 – 225.

(6) المصدر نفسه، ص 225 – 227.

لقد تساءل العديد من الباحثين عن السر الذي يقف وراء هذا النجاح العظيم الذي حققه العرب المسلمون في حروب التحرير، وحاول البعض البحث عن ذلك السر في الضعف الداخلي الذي كانت تعاني منه الامبراطوريتين الساسانية والبيزنطية من انقسام ديني وتباين اجتماعي، وإرهاق للناس في الضرائب، وإنهاك نتيجة الحروب الطويلة. غير أن هذه العوامل على أهميتها هي عوامل سلبية ساعدت العرب المسلمين على التغلب على هاتين الامبراطوريتين[1].

إن العامل الإيجابي المحرك للأحداث الذي وحد أبناء القبائل العربية المتفرقة، وأوجد لديهم الحافز المعنوي على الجهاد والاندفاع في حروب التحرير هو الإسلام "فالقوة الدافعة في الدين الجديد، وقوة الشعب العربي وتحفزه واجتماع كلمته كانت سر تفوقه "[2]. وهكذا حقق العرب أعظم أمجادهم بالإسلام، وحقق الإسلام أكبر نجاحاته بالعرب. فلا عجب أن يبقى الإسلام والعرب متلازمين في نظر مختلف شعوب الأرض مدة طويلة من الزمن.

إن عوامل القوة التي أفرزتها حروب التحرير والفتح كان لا بدّ أن تصحبها بعض العوامل السلبية التي تتطلب العلاج السريع الحاسم في مختلف المجالات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية. ويبدو أن الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ كان منتبها لذلك، لذا فإنه كان يبادر إلى وضع المعالجات والتنظيمات لمواجهة المواقف والتطورات التي تنشأ عن الأحداث في حينها. إن استكمال فهم التطور الذي حصل في زمن الخليفة الثاني يتطلب تقديم عرض مركز عن أهم التنظيمات التي تمت في عهده[3].

3- التنظيمات المالية للدولة:

كان اهتمام الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ الأساس في السنوات الأولى من حكمه التي امتدت من سنة 13 هـ - 17 هـ، رفد جبهات القتال بالمقاتلين وتوجيه قيادات الجيش من أجل حسم المعارك الناشئة مع الفرس الساسانيين والروم البيزنطيين لصالح الدولة العربية الإسلامية الفتية.

---

(1) الدوري: تاريخ صدر الإسلام، ص 47.

(2) المرجع نفسه، ص 46.

(3) لمن أراد دراسة تنظيمات عمر بشكل مفصل الرجوع إلى رسالة الماجستير المعنونة: " التنظيمات الإدارية في عهد الخلية عمر بن الخطاب " للسيد باسل طه جاسم وإشراف الدكتور هاشم يحيى الملاح كلية الآداب – جامعة الموصل، سنة 1988 " مطبوعة على الآلة الكاتبة ".